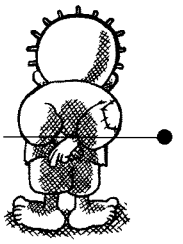

ناجي العلي: سحر الكرامة

لماذا يتردّد صوتُه فينا حتى اليوم؟

بوصلتنا

خمسة عشر عامًا مَضَتْ على رحيل ناجي العلي. نَفْتقده ثم نجده أمامنا يتجدّد فينا ويتأصّل عامًا بعد عام. كلّما بَعُدَ عنّا استطال ظلُّه ليغطّيَ مساحةَ حلمنا وتوقنا إلى ينبوع ضوءٍ مشرقٍ مرةً وإلى الأبد. فظاهرةُ ناجي العلي تتجلّى في قدرتها على اختراق الزمن والالتفاف على الراهن، لتنبثقَ كلَّ مرة كمارد عصيّ على التقزّم والانحلال. ظلَّ ناجي بعد موته مثلما كان في حياته: بوصلتَنا نحو هدفنا وحقّنا غير القابل للقسمة. فما هي ظاهرتُه، وبِمَ تتغذّى قواه الدائمةُ التجدُّد والاستطالة؟ وما هو صوتُه الذي يتردّد فينا بلا هوادة؟

لم يكن ناجي نكهةً ما أو تقليعةً يغيِّبها الزمنُ، بل نقطة تقاطُع ساطعة لآمال أمّته ولمقوّمات وجودها. استَحْضَرَ حنظلةَ، فصار شاهِدَه وشاهِدَنا معًا. لم يتريَّثْ كثيرًا قبل أن يرسمَ طريقَه التي سار عليها طوال ممارسته الفنيّة والنضاليّة. لقد تخلّى ناجي بسرعة عن طموحه إلى أن يكون فناناً تشكيلياً لأنّه أدْرك أنّ رسالتَه هي من النوع المباشر والبسيط، كبساطة الأبيض أو الأسود الذي لا يَحْتمل تأويلاً أو ظلالاً تحدّ من سطوعه ووضوح بيانه. لذلك أخذتْ رسومُه شكلَ حاجته إلى التعبير بقوّة عن ماهيّة وجدانه الوطنيّ والإنسانيّ. لم يَنْشغل ـ كما فَعَلَ غيره ـ بنقد جهة سياسيّة لحساب جهة أخرى، ولا بالتفكّه على بعض المظاهر الاجتماعيّة والبحث عن المفارقات اللفظيّة، بل انطلق فورًا وبلا هوادة إلى موضوعه الأساسيّ، مستخدمًا كلَّ أسلحته المشروعة والممنوعة، ليَكْتسب بذلك سماتِه وخصوصيّتَه وفرادتَه. فتارةً يَقْتصر على الرسم وحده ليكون معبِّرًا صافيًا صادقًا قويّاً عمّا يَعْتملَ في داخله، وتارةً أخرى يقول جملتَه أو موّالَه أو غضبَه داخل الرقعة المخصّصة له لتكون منبرًا ساخنًا لما يجول به خاطرُه عن قضيّةٍ لها أولويّةٌ مطلقةٌ على كلِّ ما هو قابلٌ للاجتهادِ والجدل. وهذا ما يبرِّر تمسُّكَه بتعميق وسائل التأثير والتواصل مع جمهوره باستخدام كلِّ ما توافَرَ له من رصيد معرفيّ وروحيّ، من دون أن يلغيَ ذلك انتباهَه ورغبتَه في تطوير أدواته الفنيّة البحتة شرط أن تَخْدم دائمًا ما حَرصَ على إيصاله عن القضيّة التي يتناولها، متجنّبًا الوقوعَ في ترفِ وإغراءاتِ الشكل كغاية في ذاتها.

الرموز

خلق ناجي رموزًا تَنْطق بلسان ذاتنا الجمعيّة، وكأنّه يَبْحث عن صيغةِ تورُّطٍ أبديٍّ في حبّه المشتعل لأرضه ووطنه. فجاءت رموزُه مطابقةً لحالةٍ طهرانيّةٍ لا تَقْبل المساومةَ، ولا تلتفت إلى أنصاف الحلول. فهذا حنظلة الذي أَصْدر بيانَه الأولَ والأخيرَ يرافق رسومه، ويقف شاهدًا مترصِّدًا لأيّة هفوةٍ أو زلّةٍ أو تنازلٍ من أيّ نوعٍ، وليظلّ حارسًا أمينًا يقظًا لكي لا يَشُوبَ قضيّتَنا المقدّسةَ أيُّ تقاعسٍ أو تهاونٍ أو فتورٍ.

انتبه ناجي إلى أهميّة الرمز وقوة فعله وتأثيره، فاختار الصَّلْبَ والصليبَ كحالة فلسطينيّة متجذِّرة في الوجود الجمعيّ، وكصورةٍ لعنف المأساة ولتجلّياتها في القيامة المجيدة. وعندما أراد أن يحيط بكلّ الركائز القويّة المنغرسة في أعماق وعينا استَكْمَلَ دائرَته، التي بدأها بالطفل حنظلة ثم بالمسيح، ليصلَ إلى المرأة (فاطمة غالبًا) لتَحْفظ السراطَ المستقيمَ من كلِّ ما يُمْكن أن يعيبَه من خللٍ أو ترهُّل، ولتبقى روحُ فلسطين متوهِّجةً مقاتِلةً للعَبَث اللفظيّ ولترف التشرذم. فما من سبب إلاّ تصاغَرَ وتضاءل أمام شاغله/شاغلنا الأول وقضيّتنا الكبرى، بما تمثّله من رمز للحريّة وللعدالة والانعتاق من كل أشكال القمع والاحتلال والطغيان. وكان كلُّ ذلك محفوفًا بطقوس وشعائر من المزاج والحداد والمواويل الشعبيّة التي تَرْسم خريطةَ الروح غيرِ القابلة للتصرّف أو القسمة.

عندما أدرتَ وجهكَ

توغّلتْ شخصيّةُ ناجي العلي بعيدًا في مسامات جمهوره، فبقي صورةً أصيلةً حيّةً، ممتنعةً عن التقليد والمشابهة لما فيها من زخم أصيل. فظلّ مقعدُه شاغرًا لأنّه وَضَعَ كلَّ بصماته عليه، فاستحقّ بذلك وفاءَ جماهيره له رغم انقضاء زمن على رحيله، وبقي حاضرًا ومؤثّرًا في كلِّ ما رَهَنَ نفسَه من أجله. فما يمرّ يومٌ إلاّ وتجد واحدًا من تجلّيات رغبة الناس في الإبقاء على ذكراه والقبضِ عليها لتكون جوازَ سفرٍ لروح أُمّةٍ بأكملها.

ولعلّ أبلغَ ما يعبِّر عن مدى هذا الانتماء ما كتبتْه شابّةٌ زارت أحدَ معارضه في مخيّم الوحدات. فقد خاطبتْ هذه الشابّةُ حنظلةَ قائلةً: «عندما أَدَرْتَ وجهكَ رأيتُ وطني!»

باريس

ناصر السُّومي

فنّان وكاتب فلسطينيّ مقيم في باريس.

ناصر السُّومي

(جريدة السفير، ١٩٨٢/٤/١١)

(جريدة القبس، ١٩٨٤/١٢/٢٧)

اختار الصلب والصليب كحالة فلسطينيّة متجذّرة في الوجود الجمعيّ